المبحث الأول

افعال العباد عند الامام الاشعري

اولا : الادلة النقلية والعقلية .

يرى الامام الاشعري (رحمه الله) : ان افعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله سبحانه وتعالى وحدها وليس لقدرتهم تأثير فيها بل الله سبحانه اجرى عادته بان يوجد في العبد قدرة واختيار فاذا لم يكن هناك مانع اوجد فيه فعله المقدور مقارنا لهما فيكون فعل العبد مخلوقا لله ابداعاً واحداثا ومكسوبا للعبد والمراد بكسبه اياه مقارنته لقدرته وارادته من غير ان يكون هناك منه تأثير او مدخل في وجوده سوى كونه محلا له[1] .

أ-ادلة الامام الاشعري (رحمه الله) النقلية .

يستدل الامام الاشعري (رحمه الله)

بالقران الكريم على صحة مذهبه ومن الايات التي استدل بها قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦ ﴾[3] . وقوله تعالى ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ ﴾[4]

[1] شرح المواقف: ٨/١٤٥-١٤٦ .
٢ سورة الزمر، الاية:٦٢.
٣ سورة الصافات، الاية: ٩٦.
٤ سورة النحل الاية ١٧.

في مقام التنديد بالمشركين وابطال رأيهم في تجويز الالوهية لغيره تعالى والتمدح بانه سبحانه وتعالى الخالق الذي يستحق العبادة لاغيره فمعنى الاية ــ والله اعلم ــ ما ينبغي لكم التسوية بين من يصدر منه .

حقيقة الخلق ومن لا يصدر من ذلك شيئا ففيها حذف المفعول و تنزيل الفعل منزلة اللازم ، للدلالة على مناط المدح واستحقاق العبادة انما هو نفس الخلق[1] .

يقول الامام الاشعري (رحمه الله) :" ان قال قائل : لم زعمتم ان اكساب العباد مخلوقة لله تعالى ؟

قيل له : قلنا ذلك لأن الله تعالى قال ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ وقال ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ فلما كان الجزاء واقعا على اعمالهم كان الخالق لاعمالهم ."[2].

من هذا النص نجد كيف ان الامام الاشعري (رحمه الله تعالى) يسبك الدليل العقلي مع الدليل النقلي سبكا محكما فهو سائر على منهجه في تقوية وتاكيد الدليل النقلي بالدليل العقلي وهي طريقة المحاسبي وابن كلاب وغيرهم من متكلمي أهل السنة اشتهر بها الامام الاشعري (رحمه الله) بعد مفارقته للمعتزلة .

١ ينظر :المسامرة بشرح المسايرة ص ٩٨-٩٩ وهامش ص ٩٨ للشيخ محي الدين عبد الحميد .
٢ اللمع :٦٩.

ب- الادلة العقلية

الاول : ان العبد لو كان خالقا لافعاله لكان عالما بتفاصيلها ضرورة ان ايجاد الشيء بالقدرة والاختيار لايكون الا كذلك واللازم باطل ــ اللازم هو التالي اي جزاء الشرط واذا بطل اللازم بطل الملزوم ــ اي ان ايجاد الشيء بالقدرة والاختيار لايكون الى من عالم بتفاصيل هذا الشيء فالعالم هنا هو اللازم وهو باطل لان العبد لايعلم تفاصيل ما يفعله فان المشي مثلا من موضع الى موضع اخر قد يشتمل على سكنات متخللة وعلى حركات بعضها اسرع من بعض وبعضها ابطأ من بعض ولا شعور للماشي بذلك وليس هذا ذهولا عن العلم بل لو سئل لم يعلم وهذا في اظهر أفعاله.

واما اذا تأملت في حركات اعضائه في المشي والاخذ والبطش او نحو ذلك وما يحتاج اليه من تحريك العضلات وتمديد الاعصاب ونحو ذلك فالامر اظهر.[1]

واذا بطل علم العبد بالجزيئات والتفاصيل فان ما ادى اليه ــ هو ان يكون خالقا لافعال نفسه ــ باطل فيثبت نقيضه ، وهو ماندعي من ان الله تعالى هو الخالق لهذه الافعال[2].

الثاني : ان فعل العبد ممكن في نفسه وكل ممكن مقدور لله نعالى لشمول قدرته للمكنات باسرها ولا شيء مما هو مقدور له بواقع بقدرة العبد ، لامتناع

١ ينظر : شرح النسفية : ١٠٩ ـ ١١٠
٢ المسامرة بشرح المسايرة هامش : ٩٨.

اجتماع قدرتين ومؤثرين على مقدور واحد[1] من جهة ان الشيء لايكون اثرا الا لمؤثر واحد .

الثالث : ان العبد لو كان موجودا لفعله بقدرته واختياره استقلالا فلا بد ان يتمكن من فعله وتركه والا لم يكن قادرا عليه مستقلا فيه وان يتوقف ترجيح فعله على تركه على مرجح اذ لو لم يتوقف عليه كان صدور الفعل عنه مع جواز طرفيه وتساويهما اتفاقيا لا اختياراً ويلزم ايضا ان لايحتاج وقوع احد الجائزين الى سبب فيسند باب اثبات باب الصانع وذلك المرجح لايكون من العبد باختياره والالزم التسلسل.[2]

ثانيا : الكسب

نقد للكلام عن الكسب بهذا السؤال : هل يجوز مقدور بين قادرين ؟

الجواب : جوزه الاشاعرة لا مطلقا بل بين قادر خالق وقادر كاسب بناءً على اثبات قدرة للعبد غير مؤثرة في مقدوره بل متعلقة به تعلق (الكسب) مع شمول قدرة الله تعالى لجميع الاشياء فيكون مقدور العبد كسبا مقدورا لله تعالى تأثيرا .

القدرة الحادثة على رأينا معاشر الاشاعرة فانها لاتؤثر في فعل اصلا وليست مبدأ الاثر قطعا وان كان لها عندنا تعلق بالفعل يسمى ذلك التعلق (كسبا)[3].

---

١ ينظر : شرح المواقف : ١٤٨/٨.
٢ ينظر: المصد السابق: ١٤٩/٨.
٣ ينظر : شرح المواقف : ٨١/٦-٨٥

"فجميع افعال العباد مخلوقة مبدعة من الله تعالى مكتسبة للعبد والكسب عبارة عن الفعل القائم بمحل قدرة العبد والخالق هو الله تعالى حقيقة لا يشاركه في الخلق غيره فاخص وصفه هو القدرة والاختراع وهذا تفسير اسمه الباريء"[1].

والحاصل ان جميع ما يتوقف عليه افعال الجوارح وافعال النفوس لا تأثير لقدرة العبد فيه وانما محل قدرته أي العبد هو عزمه عقيب خلق الله هذه الامور في باطنه عزما مصمما بلا تردد وتوجهه توجها صادقا للفعل ....

فاذا اوجد العبد ذلك العزم المصمم خلق الله تعالى له الفعل عقبه فيكون منسوبا اليه تعالى من حيث هو حركة ويكون منسوبا الى العبد من حيث هو زنـــىً ونحوه من الاوصاف التي يكون بها الفعل معصية[2] .

" فاذا قيل لا معنى لكون العبد فاعلا بالاختيار الا كونه موجودا لافعاله بالقصد والارادة وقد سبق ان الله تعالى مستقل بخلق الافعال وايجادها ومعلوم ان المقدور الواحد لايدخل تحت قدرتين مستقلتين .

قلنا : لاكلام في قوة هذا الكلام ومتانته الا انه لما ثبت بالبرهان ان الخالق هو الله تعالى وبالضرورة ان لقدرة العبد وارادته مدخلا في بعض الافعال كحركة البطش دون البعض كحركة الارتعاش احتجنا في التقصي عن هذا المضيق الى القول بان الله تعالى خالق والعبد كاسب

وتحقيقه ان صرف العبد قدرته وارادته الى الفعل (كسب) وايجاد الله تعالى الفعل عقيب ذلك خلق والمقدور الواحد داخل تحت قدرتين لكن بجهتين مختلفتين فالفعل مقدور لله بجهة الايجاد ، ومقدور للعبد بجهة الكسب وهذا القدر من المعنى

---

١ الخطط للمقريزي : ٢/٣٩٠ .
٢ المسامرة بشرح المسايرة : ١١٩-١٢٢ .

ضروري وان لم نقدر على ازيد من ذلك في تلخيص العبارة المفصحة عن تحقيق كون فعل العبد بخلق الله تعالى وايجاد ما فيه للعبد من القدرة والاختيار ولهم في الفرق بينهما عبارات مثل : ان الكسب واقع بآلة والخلق لا بآله .والكسب مقدور وقع في محل قدرته ، والخلق مقدور لا في محل قدرته. و الكسب لا يصح انفراد القادر به ، والخلق يصح انفراد القادر به ."[1].

شبهة والرد عليها يقول احد الباحثين :"الواقع ان الاشاعرة قد خرجوا بعض الشيء من المأزق لكنهم لم يخرجوا منه نهائيا ، ولن يخرجوا الا مجرحين لحدة حافة الزاوية ، اذ يبقى السؤال قائما ، من أحدث هذه الارادة عند الانسان ؟

أليست هي حادثة فلا بد لها من محدث ؟ وظاهر القران يصرح بأنها مخلوقة لله :﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، ولا اظن الاشاعرة يقولون بغير هذا .فاذا كان الله خلق في ارادة الشر ، وخلق لي الشر فكيف يحاسبني عليه ؟! وهل سيكون معنى الكسب الا اني تلبست بهذا الفعل ولو على كره مني ؟![2]

الجواب : ان الاشاعرة يقولون قوله تعالى ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾[3] . ، وقوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[4]، لايتوجه على الميلان القلبي للانسان نحو الخير ، او الشر ، فالميلان القلبي لا يسمى شيئا ، والله تعالى يحاسب عباده على هذا الميلان القلبي ، او التوجه نحو الشر ، او الخير .

---

١ شرح النسفية: ١١٦-١١٨.
٢ العقيدة الاسلامية في القران الكريم ومناهج المتكلمين : رسالة دكتوراه ، محمد عياش الكبيسي ، ص : ١٦٦.
٣ سورة الانسان، الاية ٣ .
٤ سورة الزمر ، الاية ٦٢ .

"يقول الاشاعرة بان القدرة يستخدمها الانسان بعد ميلان القلب ، والميلان امر اعتباري غير موجود في الخارج ، والميلان من الامور الذهنية ، وهي غير قابلة للمخلوقية وميلان القلب يتحول الى رغبة والى ارادة ومن الارادة يأتي القصد ففعل هذا الشيء عنه اي صدوره عن الانسان ، فنقول التأثير من الله والكسب من العبد .

وحتى نعمل جميع ما جاء في القران قـــــال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾[1] ، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦ ﴾[2] ، وحتى لانكون ممن قال الله تعالى فيهم : ﴿ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ ﴾[3] ، فالحساب يكون على الميلان القلبي (الكسب) .

واخيرا قد يتمسك البعض بشبهة اخرى وهي : انه قد دل الدليل على ان كل عمل لكل عامل سبق في علمه تعالى ، وتعلقت به ارادته ، وعلمه لا يتبدل وارادته لا تتحول ....[4]

قلت : هذا امر صحيح ، ومسلم ولكنه لا يخالف ، ولا يعارض ما ذكرت .، لان علمه سبحانه وتعالى شامل أزلا وأبدا لكل عمل ، ولكل عامل وارادته تعالى تابعة لعلمه ، ولا ينكر أحد ذلك : ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾[5] .

---

١ سورة الزمر ، الاية ٦٢.
٢ سورة الصافات ، الاية : ٩٦
٣ سورة البقرة ، الاية ٨٥ .
٤ نور الاسلام ، الشيخ عبد الكريم المدرس : ٢٤٠-٢٤٢ ، الدار العربيـــة للطباعـــة والنشر ١٩٧٨م.
٥ سورة الملك ، الاية ١٤ .

وقد صح أن ما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن ، ولكن العلم كشف أزلاً ما انت تعمله باختيارك وارادتك وارادته تعلقت به حسب علمه بذلك فالعلم ليس مجبرا وانما هو مظهر ، والارادة منه تعالى تابعة لعلمه الكاشف وليس أمرا اجباريا يوجب عليك الامر بالقهر والاعتساف[1].

١ نور الاسلام ، الشيخ عبد الكريم محمد المدرس : ٢٤٠-٢٤٢ .